وقفة: مع النفاق

قضية من أعوص القضايا، إنّها قضية خافها الأنبياء، وخافها الصالحون، وخافها الأتقياء، إنّها قضية عظيمة بكى منها السلف، بكى منها السلف وسالت منها الدموع، وتفطّرت من أجلها الأقدام.

ذكرها الله جلّ وعلا في القرآن الكريم، بل وأفرد لها سورةً كاملة، إنها سورة الفاضحة، إنها سورة المنافقين.

إنها قضية النفاق، ونعوذ بالله منه، النفاق الذي إذا جاء إلى القلب جعله مرباداً كالكوز مجخياً، لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً، إلا ما أشرب من هواه.

إنّه النفاق الذي خافه النبي صلى الله عليه وسلم ، وتعوذ منه، وخافه أبو بكرٍ رضي الله عنه حينما قابله حنظلة، فقال: إنّي أشكو النفاق، فقال الصديق: إني أشكو ما تشكو منه يا حنظلة، هيا بنا إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم .

وهذا عمرُ بنُ الخطاب، فاروق الأمة، يشكو من النفاق رضي الله عنه وأرضاه، فيقول: أسألك بالله يا حذيفة، هل عدّني صلى الله عليه وسلم من المنافقين؟

النفاق يا أحبتي في الله، لا يأمَنُه إلاّ المنافقون، ولا يخافُه إلا أهلُ الإيمان والصالحون، جعلنا الله تعالى ممن يخافون النفاق.

فما هو النفاق أيّها المسلمون؟ هناك نفاقٌ اعتقادي مكفّر، كما قال الله سبحانه وتعالى، يصفُ أصحابَ هذا النوع من النفاق:{وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾} [البقرة: ٨ - ١٠].

ونفاق آخر، هو النّفاق العملي، النّفاق المنتشر بين ظهراني رجال الأمة، الذي أخبر عنه صلى الله عليه وسلم ، كما في الصحيحين، فقال: ﷺ **آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلَف، وإذا أؤتُمن خان**ﷺ.

وهيّا بنا وإياكم لنستعرض بعض صور النّفاق، وبعض صفات المنافقين، لنحذرها أشد الحذر، فيا ويل المنافقين، ويا ويل من ازدوجت شخصيتهم، فأصبحوا على طريقتين، ويا ويل المتذبذبين، الذين ليسوا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

إنّ أخطر النّفاق، أيها الأخ الحبيب، ويا أيتها الأخت الكريمة، يوم أن يضمر الإنسانُ شيئاً ويبدي للناس بطلاوة وبحلاوة اللسان، وببشاشة الكلمات، وبتجميع العبارات، وبزخرفة الجُمَل واللفظات.

إنّ المنافقين يوم أن يتكلمون بكلمات، ولكنّهم يضمرون السمّ الزعاف، الذي يضعونه في هذا الدسم، نعم:{وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾} [البقرة: ٨ - ٩].

أنت من أنت يا عبد الله، أنت من أنت حتى تخادع الله، أنت ضعيف ومسكين، تُدمِيك البقة، وتموت من الشرْقة، وتحمل في جوفِك العَذِرة، أنت من أنت يا ضعيف العزم، يا صغير الهيئة، يا ضعيف الحمل، يا ضعيف البنية، حتى تخادع قيوم السماوات والأرضين: {يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾} [البقرة: ٩، ١٠].

وإنّ من أعظم علامات المنافقين، أن يفسدوا في الأرض، ويفسدوا في المجتمع، ويفسدوا كل شيء في هذه الدنيا،

ويقولون:{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾} [البقرة: ١١].

فالله جلّ جلالُهُ يقرر هذه المسألة، فيقول:{أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا} [البقرة: ١٣ - ١٤].

إذا جاءوا في المجالس، وإذا حضروا في الأفراح والمآتم:{وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾} [البقرة: ١٤].

فالله جلّ جلاله، الجبّار يردُّ عليهم:{اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾} [البقرة: ١٥].

الله تعالى، يعطيهم الأعمار، ويعطيهم الصحة، ويعطيهم المال، ثم لا يتوبون ولا هم يذّكّرون، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ومن صفات المنافقين أيضاً، يا أيها القارئ الكريم لنحذرها، ونبتعد عنها، أنهم يُصلّون، وهذه حقيقة قررها الله في القرآن الكريم، فقال:{وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ} [النساء: ١٤٢].

إنّ المنافقين، واللّهم اجعلنا ممن طهُر قلبُه من النفاق، إنّ المنافقين لا يصلّون إلا وهم كسالى، ليس ديدنُهم قول محمد صلى الله عليه وسلم الذي يقولُ:♂**أرحنا بالصلاة يا بلال**═، رواه أبو داود.

وليس شأنهم شأن عمرَ الذي يقول: (لا حظّ في الإسلام لمن ترك الصلاة، لاحظ في الإسلام لمن ترك الصلاة).

وليس ديدنُهم أئمة السلف، يقول ابنُ المسيَّب: (والله ما أُذّن أربعين سنة إلاّ وأنا في المسجد)، وليس ديدنُهم ابنُ مهران الأعمش سليمان، بكت عندهُ ابنته وهو في الموت، فيقول: (ابكي أو لا تبكي، والله ما فاتتني تكبيرةُ الإحرام مع الإمام ستّون سنة).

لا إله إلا الله، هذا هو الإيمان، أما النّفاق، وأهلُ النّفاق، وأهل القلوب المريضة، فيأتون إلى الصلاة ولكنّهم لا يأتونها إلا كسالى، ولا ينفقون إلا وهم كارهون.

ومن صفاتهم أنّهم يراؤون الناس، وفي الحديث الصحيح، يقول صلى الله عليه وسلم :♂**من راءى راءَى الله به، ومن سمّع سمَّع اللهُ به**ـــ، أخرجه البخاري.

فالرياءُ شركٌ أصغر، الرياء أنْ ترضي الناس وتنسَى رب الناس، يتنسّكون ويقفون مع المصلين، ويذكرون الله مع الذاكرين، ولكنهم يراءون الناس، هذه حقيقة قررها الله عن النفاق وأهل النفاق، ما يريدون وجه الله، وما يريدون إرضاء الله، ما يريدُون متابعة المعصوم صلى الله عليه وسلم.

ومن صفاتهم التي بينها الله:{إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾} [النساء: ١٤٢].

فدائماً ألسنتهم تقدَحُ في العلماء وفي المخلصين، أمّا أن تلهج بـ لا إله إلا الله، محمد رسول الله، أمّا أن تكون رطبة من ذكر الله تعالى فهذا ليس من ديدنة المنافقين.

فاحذروا أيها الإخوة صفات المنافقين، فأهل الإيمان يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم.

إنّ أهل الإيمان دائماً تلهج ألسنتهم بـ لا إله إلا الله، بذكر الله، دائماً يحبون ذكر الله، دائماً يحبون المجالس التي يُذكر فيها محمدٌ صلى الله عليه وسلم، أمّا أهل النفاق، فلا يذكرون الله إلا قليلاً.

ومن صفاتهم، نعوذ بالله منها، ومن التخلّق بها، أنهم ليسوا مع

الصالحين، وليسوا مع المشركين والكافرين، يعيشون مع أولائك وأولائك، لماذا؟

لأنّ لهم مآرب أخرى، لأنّ قلوبهم سوداء، لأنّ قلوبهم جوفاء، لأنّهم ما تعلقت قلوبهم بالرحمن جلّ وعلا.

ومن صفات المنافقين أيضاً، وكلُّها مستقاةٌ من القرآن، ومن السنّة الصحيحة، السخرية والاستهزاء بالصالحين، كما قال الله جلّ وعلا: {قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ } [التوبة: ٦٥].

جلس أحدهم لأصحاب المصطفى صلى الله عليه وسلم وقال: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغبُ بطوناً وأجبن عند اللقاء، من يَقْصِد؟

كَبُرَت كلمةً تخرجُ من أفواههم، أفي صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا؟

إن يقولون إلا كذباً، إن يقولون إلا كذباً، أأصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم ، الذين تقطعت رقابهُم، وتمزقت أشلاؤهم، وسقوها بدمائهم، أهؤلاء هم أجبن عند اللقاء؟

منهم من قال: فزتُ بها وربّ الكعبة، ومنهم من قال: وعجلتُ إليك ربّ لترضي، ومنهم من قال: واهٍ لريح الجنة أسعد، ومنهم من قال: ما على الغنائم بايعتُك، بايعتُك على السهام يا رسول الله.

ومنهم من قال: اللهم ارزقني الشهادة مقبلاً غير مدبر، وغيره قال:

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا ::: علي أي جنبٍ كان في الله مصرعي

نعم، إنّ النفاق وأهل النفاق يقولون هذا الكلام قديماً وحديثاً، يقولونه عن الصالحين.

فينزل الله قرآناً يُتلى إلى قيام الساعة، يقول الله:{قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ

وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ } [التوبة: ٦٥].

وفي زماننا يا أيها الفضلاء، ما أكثر الذين يستهزؤون بالعلماء، ما أكثر الذين يستهزؤون بأهل المساجد، ما أكثر الذين يستهزؤون بأتباع السّنّة.

إنّهم الذين مرضت قلوبهم، لا خلاق لهم، نعوذ بالله من ذلك، وها هو الحي القيوم يرد عليهم، فيقول:{قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ } [التوبة: ٦٥، ٦٦].

ومن صفات المنافقين أنهم يحلفون، كثيرو الحلف، نعم والله يقرر هذا فيقول في سورة المنافقين:{ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً } [المجادلة: ١٦]، يتّخذون اليمين وقاية من كذبهم، ولعبهم، وروغانهم، وترويجهم،.

إنّهم يكثرون من الحلف، والله يعلم إنهم لكاذبون:{ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ } [المجادلة: ١٩].

يا أخي الكريم، ويا أخت الكريمة:{وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ } [يوسف: ٥٣]، لابُدَّ أن نخاف النفاق، كلنا معنيٌّ بهذا الكلام، فإمَّا والله سيكون هذا الكلام إمّا حجةً لنا يوم القيامة، أو حجةً علينا، و الناس في النفاق، فيه مُقِلٌّ ومستكثر، نسأل الله العفو والعافية.

ومن صفات المنافقين أنّهم إذا أنفقوا، ينفقون وهم كارهون، ومن صفاتهم أنهم يرجفون، والإرجاف هو تغييرُ الحقائق، وقلبُ المواضيعُ، قال البارئ جلّ وعلا:{لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ } [الأحزاب: ٦٠].

المنافقون كالذباب، لا يقع إلا على الجرح، فيكبّرون الصغائر،

ويصغرون الكبائر، إنّهم أولائك المرجفون، ومن صفاتهم البخل، وعليّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه يصرخ قائلاً: (لستُ أرى أشقَى من البخيل بالمال يشقى في الحياة بجمعه، ويعاقب يوم القيامة على منعه).

في الدنيا يعيش المنافق عيش الفقراء، وفي القيامة يحاسبُ حساب الأغنياء:{فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ } [التوبة: ٧٦ - ٧٧]، هذه صفاتهم بخلٌ صراح.

ومن صفات المنافقين أيضاً: مخالفةُ الظاهر للباطن، وفي مطلع سورة المنافقين:{قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ } [المنافقون: ١]، ويقولون ذلك للنبيّ وهم يبطنون خلافه، وفي الناس مثل هذا كثيرٌ، يجاملون باللسان، ويتمنون بالقلب قطع الرقاب بالسنان، وما خفي كان أعظم، وصفات المنافقين كثيرة كثيرة، ولكن المقام والوقت لا يتسع.

فوقفة يا أخي تحذر بها النفاق، وصفات المنافقين، وتُخلص ظاهرًا وباطنًا لله رب العالمين، وأسأل الله لي ولك ولسائر المؤمنين، قلبًا خاشعًا، ولسانًا ذاكرًا، ودعاءً مستجابًا، ونفسًا مطمئنة، بمنّه وكرمه، اللهم آمين، آمينَ، آمين.

* * *